

الرحمة سأكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر؛ لأنني أريد أن أخاطب القلب وجهاً لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر. إنَّ البذور تُلقَى في الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها وجعل عاليها سافلها، ولا محراث للقلب غير الشعر. أيها الرجل السعيد كن رحيماً، أشعر قلبك الرحمة، ستقول: إني غير سعيد؛ لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يُلْمُ بغيره من القلوب، أجل فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع واكس العاري وعزّ المحزون وفرّج كربة المكروب يكن لك من هذا المجتمع البائس خير عزاءٍ يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك، فالبدر لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام، لقد بليت الذات كلها ورثت حبالها وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد، هي لذة الإحسان. إنَّ منظر الشاكر منظرٌ جميلٌ جذاب، ونغمة ثنائه وحمده أوقع في السمع من رنات العود في هزجه ورملة، وأعزب من نغمات «معيد» في الثقل الأول. أحسن إلى الفقراء والبائسين، وأعدك وعداً صادقاً أنك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك منه أنك أكرم مخلوق وأشرف إنسان، ويرجو برجائه، وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة ما يجده الصالحون إذا ذُكروا في الملاء الأعلى. واغبتاباً بدموعك؛ لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطورٌ من نورٍ تُسجِّل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان. ويخفق قلبها بلمعان البرق، وتصرخ بهدير الرعد، وإنَّ الأرض تنئن بحفيف الريح، وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أئين الأرض إلا رحمة بالإنسان، ونحن أبناء الطبيعة فلنُجارها في بكائها وحنينها. إنَّ اليد التي تصون الدموع أفضل من اليد التي تريق الدماء، والتي تشرح الصدور أشرف من التي تبقر البطون، وأشرف من المجاهد، وكم بين من يحيي الميت ومن يميت الحي! إنَّ الرحمة كلمة صغيرة، ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها والشمس في حقيقتها. لو تراحم الناس لما كان بينهم جائعٌ ولا عارٍ، ولأقفر الجفون من المدامع، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام. لم يخلق الله الإنسان ليقتدر عليه رزقه، وغدر القوي بالضعيف، واحتجن دونه رزقه، ولو كان للرحمة سبيلٌ إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل. الفرد هو المجتمع، وإنما يتعدد بتعدد الصور، فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ الإنسان المجتمع، فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع. وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكانٍ واحدٍ، إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعةٍ واحدة الملك الرحيم، والشيطان الرجيم! إنَّ من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل، فإذا مشى مشى متدفعاً مُنْذِلًا لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراب في الضحك سخريّة به وببذانة ثوبه ودمامة خلقه. وإنَّ من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درّتهم ويمتص دماءهم، ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل! وإنَّ من الناس من لا حديث له إلا الدينار، وكيف الطريق إليه، وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيلة لفراره، يبيت ليله حزناً كثيراً؛ لأن خزانته ينقصها درهمٌ كان يتخيله في يقظته، وإنَّ من الناس من يؤذي الناس لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة؛ بل لأنه شريٌ يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه، أو ليضرّ نفسه بالأذى؛ مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجراً صلباً من أحجار الغرائب لا يبضُّ بقطرة من الرحمة، ولا تخلص إليه نسمة من العظة. فإنهم سباعٌ مفترسةٌ وذئابٌ ضارية، أو تعترض طريقه، أيها الإنسان، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتفضل الموت على الحياة. وخادمة فراشك؛ لأنها ضعيفةٌ، ولأن الله قد وكل أمرها إليك، ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه، فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين. ويبكي بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين، ويضرب من لا يمدُّ إليه يداً. ارحم الطيور، ودعها في فضائها تهيم حيث تشاء، إنَّ الله وهب لها فضاءً لا نهاية له، فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبسٍ لا يسع مد جناحيها، وأطلق سمعك وبصرك ورائها لتسمع تغريدها فوق الأشجار وفي الغابات وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهي طائفة في جو السماء فيخيلُ إليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيّار. أيها السعداء، أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. الرحمة سأكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر. إنَّ البذور تُلقَى في الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها وجعل عاليها سافلها، وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته وتخللت أجزائه وبلغت سويدها، أيها الرجل السعيد كن رحيماً، أشعر قلبك الرحمة، ليكن قلبك الرحمة بعينها. ستقول: إني غير سعيد؛ لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يُلْمُ بغيره من القلوب، أجل فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع واكس العاري وعزّ المحزون وفرّج كربة المكروب يكن لك من هذا المجتمع البائس خير عزاءٍ يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك،

والفجر لا يدُرج إلا من مهد الظلام، لقد بليت اللذات كلها ورثت حبالها وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد، ولم يبق ما يعزي الإنسان عنها إلا لذة واحدة، هي لذة الإحسان. إنَّ منظر الشاكر منظرٌ جميلٌ جذاب، ونعمة ثنائيه وحمده أوقع في السمع من رنات العود في هزجه ورملة، وأعدك وعداً صادقاً أنك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك منه أنك أكرم مخلوقٍ وأشرف إنسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرًا بما فعلت، ويرجو برجائه، وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة ما يجده الصالحون إذا ذُكروا في المأز الأعلى. واغتيالاً بدموعك؛ لأنَّ الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطورٌ من نورٍ تُسجِّل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان. إنَّ السماء تبكي بدموع الغمام، ويخفق قلبها بلمعان البرق، وتصرخ بهدير الرعد، وإنَّ الأرض تتن بحفيف الريح، وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان، إنَّ اليد التي تصون الدموع أفضل من اليد التي تريق الدماء، والتي تشرح الصدور أشرف من التي تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد، وأشرف من المجاهد، إنَّ الرحمة كلمة صغيرة، إذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء. ولا مغبونٌ ولا مهضومٌ، ولأقفر الجفون من المدامع، ويسد حاجته، ولكن سلبه الرحمة، وغدر القوي بالضعيف، واحتجن دونه رزقه، فتغير نظام القسمة العادلة وتشوّه وجهها الجميل، الفرد هو المجتمع، وإنما يتعدد بتعدد الصور، أندري متى يكون الإنسان إنساناً؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه؟ فحقق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها، فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ الإنسان المجتمع، فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع. وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكانٍ واحدٍ، إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم، والشیطان الرجيم! إنَّ من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل، وإنَّ من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درّتهم ويمتص دماءهم، لا يقربها ولا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها، ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل! وإنَّ من الناس من لا حديث له إلا الدينار، وأين مستقره، وكيف الطريق إليه، يبيت ليله حزينا كئيباً؛ لأنَّ خزانته ينقصها درهمٌ كان يتخيله في يقطته، أو يرى في منامه أنه سيأتيه فلم يقبض له، وإنَّ من الناس من يؤذي الناس لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة؛ أو ليضرّي نفسه بالأذى؛ مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه، حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدبّ عقاربه وغرض سهامه! وإنَّ من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها، أو عن قلبه رأيت حجراً صلباً من أحجار الغرائب لا يبضُّ بقطرة من الرحمة، فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله من أن تكون واحداً من هؤلاء، بل أعظك ألا تدنو من أحدهم، فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك ولا أسف عليك. أيها الإنسان، ارحم الزوجة أمّ ولدك، وقعيدة بيتك، ومراة نفسك، لأنها ضعيفة، ولأنَّ الله قد وكل أمرها إليك، وارحم الحيوان؛ لأنه يحس كما تحس، ورحمه، وكذب من يقول: إنَّ الإنسان طبعٌ على ضرائب لؤم، ويضرب من لا يمدُّ إليه يداً. لا تحبسها في الأقفاص، ودعها في فضائها تهيمُ حيث تشاء، إنَّ الله وهب لها فضاءً لا نهاية له، فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبسٍ لا يسع مد جناحيها، أطلق سبيلها،